التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأعراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خـذوا معانى العظمة فى نـقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٧ —

عاد المحامى يكدح من أجل قوته كدحاً شديداً ، ويأخذ قسطه من النَّصب مع صديقه هرندن ؛ وكان قد تركه وحده طيلة ذلك الصراع المنيف ؛ فهو بذلك يخرج من جهد إلى جهد ؛ والناس يعجبون من تلك القوة البدنية التي ما زال يتمتع بها قاطع الأخشاب فى الغابة بالأمس وهو اليوم قد ناهز الخمسين أو كاد

وإن به بعد عودته هذه لحاجة شديدة إلى المـال فهو اليوم ذو عسرة ؛ وإنه لن يطلب المال ليستعين به فى الوصول إلى جاه كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس ، بل لينفق منه فيما باتت تطلبه السياسة من أوجه الأنفاق ؛ وإنه ليفطن إلى أن عودته إلى المحاماة إنما هي إلى أجل قريب، فلقد خطا في السياسة خطوة لن يكون بعدها نكوص

ولم يجعل إبراهام للمحاماة كل همه كما كان يفعل من قبل حينما كان يمني بالفشل فى السياسة ؛ فأن للسياسة اليوم نصيباً كبيراً من وقته ومن جهده ؛ فهو يقرأ الصحف قراءة تمعن ليرى ماذا يقول الناس فى مسألة العبيد ، ولينظر فى الأمر ليتعرف كيف يتطور وإلى أين يتجه البلاد فيه ؛ وهو يدعم بنيان حزبه فى ألينواس ويعدله ما استطاع من قوة يمتد بها فى غد

ونظر الناس إليه اليوم نظرتهم إلى ذى جاه ، ويشيرون إليه فى إعجاب وإكبار ، وهو يحس هذا فلا يزداد إلا دعة وليناً ؛ فيدل بذلك على أن عظمته عظمة حقيقية تبدو للناس فى أبسط مظهر لها فتكون بذلك فى أبهى مظاهرها ...

والعظمة الحق كالذهب الحر فى بساطة جوهره وبهاء منظره ولن يخرج الذهب عن صفته إذا وجد غفلاً من الزخرف ؛ والنحاس مهما أدخل عليه من النقش والزينة لن يكون إلا نحاساً ؛ والعظمة الحق هى التى تخلق الرجال وتبنيهم ، وليست هى تلك التى يختلقها الرجال فيكون الواحد منهم بما يتصنع ويتكلف كالذى يخطر فى حلة رائعة وهو لا خلق له ؛ فلا تخفى الحلة سمته ، ولا يكون منها إلا أنها تظهره أقبح منظراً وأحقر أمراً ؛ فهو إنما ينبه الناس بما ينتحل ويدعى لنفسه من أوجه الكمال إلى حقيقته فيرون أنه ليس بالكبير ولكنه يتكبر ، ولا تقع أعينهم منه إلا على مظهر وإن كان ليخيل إليه أنه جوهر ...

ولقد كان لنكولن يفعل الفعل أو يرى الرأى فى أمر من الأمور عن لقانة مدهشة وطبع معجب بكماله ، فاذا رددت فعله أو رأيه على ما تواضع الناس عليه من عرف وما اتفقت عليه عقولهم وقلوبهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً ؛ بل إنك لتراه حقيقاً أن يسير الناس كما يرسم ، كأنه في أعماله كوكب فى هذا الفلك الدائر يتحرك وفق نظام محدود فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن ينفرط عقد ذلك النظام

وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع الناس بينهم وبينه الكلفة ، فهو يصاحبهم ويعاشرهم كأنه أصغرهم قدراً ؛ وهو على كثرة بره بهم لا يبتغى على معروف جزاء . وكان إذا غشى مجلساً لم رآهم يتنحون له عن مكان الصدارة فيأبى إلا أن يجلس حيثما اتفق له ؛ وإنه ليستحى أن يناديه الناس باسمه مجرداً عن كل لقب يراد به التعظيم وهو عندهم أيب الأمين أو أيب العجوز أو هما معاً ، وهى ألفاظ لها فى أذنه سحر الغناء لأن فيها جمال الصدق وجلال التواضع ...

وحسبك دليلا على جمال نفسه وطيب عنصره أنه طلب إليه يومئذ أن يكتب كلمة فيها ملخص حياته لتكون مرشداً إلى ترجمة توضع له فلم يشر إلا إلى أنه نشأ فى الغابة من أبوين فقيرين ، وأنه عمل منذ صغره على كسب قوته فساعد أباه تارة واشتغل أجيراً تارة ، وأنه تعلم القراءة والكتابة دون مساعدة تذكر من جانب غيره ، وأنه ذهب إلى نيوأرليانز في تجارة لأحد الناس ، وأنه اشتغل بعدها صبياً فى حانوت ، وأنه عمل في تخطيط الأرض وفى توزيع البريد، وأنه عالج المحاماة حتى حذقها، وأنه اختير عضواً

فى مجلس الولاية ... كل أولئك دون أن ترى فى كلمته هذه عبارة تشعر بفخر أو تنم على زهو ، حتى أنه ما استطاع أن يشير بكلمة إلى ما أصاب من نجاح فى السياسة ، وهو إن فعل لم يك يعدو الحقيقة فى شيء ...

رجع إبراهام إلى سبرنجفيلد ولكن اسمه ملء الأسماع فى كل مدينة من المدن الكبيرة وخاصة فى الشمال ؛ والصحف لا تفتأ تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس ، ولا تكاد تذكر مسألة العبيد إلا مقرونة باسمه ؛ ثم إن مسألة العبيد تذكر اليوم معها مسألة أخرى هى مسألة الوحدة، فقد أخذت تزداد فى الجنوب دعوة الداعين إلى الانفصال عن الشمال ؛ وكان خصوم إبراهام يجتهدون أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهورى السبب فى هذا الانفصال إذا تم ، وكانوا يسمونه الجمهورى الأسود حنقاً عليه وكيداً له ...

وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة فى الشمال ليخطب الناس فيها ، فأعرض أول الأمر عن إجابة هذه الدعوات قائلاً : إنه إن ترك عمله فى المحاماة مدة كما فعل من قبل فسوف يعدم قوته ؛ ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه والطعن عليه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام ؛ وإذاً فالى مجادلتهم من جديد ما من ذلك بد ...

وكانت مارى على ما به من خصاصة تطلب منه الكثير من المال لتظهر به فى المظهر الذى يليق بما أصبح له من مكانة ؛ وهي فى الوقت نفسه لا تنفك تستعجله فى السياسة وتحرص ألا يتهاون فى أمر من أمورها

ولقد عظمت ثقته بنفسه ؛ ولكن تواضعه يغلب عليه فيرى نفسه بين عاملين يتنازعانه، فبينما هو يفطن إلى قوته ويحس أن منطق الحوادث يسير به إلى حيث يصبح رجل الساعة ، إذا به — وكأنه يخشى الخيلاء — ينظر إلى نفسه نظرة لولا ما عرف عنه من الصدق والصراحة لأخذت على أنها نوع من المكر يلجأ إليه لغاية فى نفسه. فهو يسر إلى صديق له أثناء منازلته دوجلاس أن امرأته تتوقع أن سيصبح رئيس الاتحاد، ثم يقول لهذا الصديق وهو يضحك ملء نفسه ويداه تعتقلان ركبتيه وهو مستلق على ظهره: «صور لنفسك ياصاحبي كيف يصير أبله مثلي رئيسا »

يالله لهذا الرجل ! ولكن المبدأ عنده كما أسلفنا فوق كل اعتبار آخر ، وما الرياسة عنده إلا غرور مالم تكن وسيلة إلى تحقيق ما استقر فى نفسه ، لذلك كان يجهد ويدأب كلما خاف على مبادئه أن تعصف بها الأهواء والمغالطات ، ولم يخطر بباله يوماً ما أن يخطو خطوة واحدة من أجل غرض شخصى

وكان لا يزال يرى فى دوجلاس أخطر خصومه ، لا لما كان بينهما من منافسة ، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من المكر الشديد والمقدرة على أن يخدع الناس فى سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعه الشخصية وهو لا يرعى فى الحق إلاً ولا ذمة

وكأن دوجلاس لم يكفه ما كان من جدال فحمل فى أهاير على الحزب الجمهورى وقذفه بما شاء من اتهامات. فذهب لنكولن وخطب الناس فى كولمبس وسنسيناتى ، وفى هذه المدينة أعلن سياسته فى صراحة وجلاء، قال : « إنى أعلن أول الأمر لأهل كنتولى أنى كما يقولون — ولكن كما أفهم أنا — جمهورى أسود ؛ إنى أعتقد أن نظام العبيد خطأ خلقى وسياسى ، وإنى أود ألا تنتشر العبودية من بعد فى هذه الولايات المتحدة !

ولم يقتصر كلامه على نظام العبيد بل تكلم فى شؤون أخرى كانت تهم الناس، منها رأس المال ونظام العمل ، ولقد أطرب فى ذلك السامعين وملك مشاعرهم ؛ ولما رأى إقبالهم على هذا الحديث أعاده فى سوق جمية زراعية فى حفل أقامته بعد ذلك بأسبوعين فقال إنه يرى رأس المال مديناً فى وجوده للعمل ، فالعمل لذلك أهم وأعلى منزلة، وإن خير عمل هو ما يقوم به الفرد الحر الذكى المستقل الذى يعد ذخر البلاد وعتادها ...

وفيما هو ينافح عن حزبه ويجادل خصومه فى مبادئه إذ وقع فى البلاد حادث جديد زاد هياجها ، وكان مثله مثل الزيت يلقى به على النار وذلك هو حادث جون برون ، فان هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير العبيد ، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم فى كنساس ، ولقد عول اليوم أن يذكى نار الثورة فى البلاد إذ لم يطق صبراً على بقاء هذا النظام البغيض ، وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يتربصون به ليقتلوه هو ...

خرج هذا الرجل فى ثمانين لا أكثر من الرجال ، منهم خمسة من الزنوج ؛ وكان قلبه يفيض حماسة ، فأعلن خطته فى جرأة الأبطال واستهتارهم بالموت ، ألا وهى حق كل زنجى أن يثور على مالكه ، فليس أمام هؤلاء الزنوج غير القوة ؛ ولكن جون برون لم يكد يخطو الخطوة الأولى ويستولى على مركز يجعله قاعدة لحركته حتى غلب على أمره فحوكم وأعدم . . . ولقد قابل الموت بجنان ثابت ونفس هادئة . ولما حانت منيته استنزل لعنة الله على الظالمين أعداء الحرية . . .

واغتدى جون بجرأته ثم بميتته هذه بطلا عند دعاة التحرير فى الشمال ؛ وأخذوا ينظمون الأناشيد فى بطولته ويجعلونه رمزاً لأحرار الشمائل ومثالاً يجب أن يحتذيه كل من كان له قلب يخفق بحب الحرية . . . ويرى دوجلاس فى هذا الحادث فرصة يحذر أن تفوته ، فيعلن أن ذلك ليس بعجيب فلن تقضى مبادئ الجمهوريين إلا إلى مثله . . .

وأدرك لنكولن خطر التهمة ، ولو كان غيره مكانه لأخذته مما رمى المارد الصغير ورطة ؛ ولكن صوت الحق لا يضيع في ضجيج الباطل ؛ فهذا لنكولن يتلقى دعوة من جماعة فى نيويورك فيلبى مسرعاً ويلقى خطاباً من أبدع وأروع ما واتته به عبقريته وفى جمع لم يسبق أن وقف فى مثله

احتشد لسماعه فى تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأى وذوى الثقافة وأساطين الصحافة ، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر . . . واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكولن ، هذا الذى كان يشتغل نجاراً أول ما نشأ فاستطاع أن يرقى حتى يقف من دوجلاس الشهير موقف الند من نده وأن يظهر عليه فى الخطابة والمجادلة . . .

ولقد ارتاع فؤاده عند ما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة فى ملابسهم الأنيقة ، ورأى فى وجوههم نضرة النعيم وفى أحاديثهم وتحياتهم روح المدنية ؛ ولما نهض للخطابة شاهد بعض الناس علامات الحيرة عليه ، فقد كان على غير ما ألف مشغول البال بملابسه المنهدلة العتيقة التفصيل والحياكة والتى تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جئ بها من متحف وتطلع عامة الناس إليه فى دهشة ، وتفسمت ألحاظهم بين قامته الطويلة ويديه الكبيرتين اللتين تدلان فى جلاء على أنهما خلقتا للعمول لا للقلم ، ووجهه المصفار المسنون الذى تغشاه سحابة عميقة من الهم ، وعينيه الواسعتين اللتين تعبران عن وداعة الأطفال وحماسة الأبطال ، وأنفه الأشم الغليظ الذى يترجم عن صرامة عزيمته وشدته فى الحق ، وشعره الأشعث الذى يعلو رأسه الكبير فى غير نظام كأنه ألفاف الغابة ...

وكان صوته فى أول الأمر خافتاً ، ولكنه أخذ يعلو حتى ملأ الأسماع . وصفه أحد الحاضرين فقال : « أخذ وجهه يضيء بما فى باطنه من نيران ... وجلجل صوته وعظمت قوة خطابته ، واتفق له إلى حد كبير مثل سهولة الانجيل البالغة .. وكان يسود المكان صمت عميق بينما هو يتكلم حتى لقد كان إذا سكت يسمع هسيس الغاز منبعثاً من ثقوب المصابيح ، فاذا تحمس السامعون دوت فى جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان »

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية قاطبة . قال عنه جريلى — وهو الذى رأيناه قبل ذلك بعامين يدعو إلى أن ينضم دوجلاس إلى الحزب الجمهورى ففقد بذلك مودته — : « ما من رجل استطاع أن يبلغ لأول مرة بخطابه إلي مثل هذا الأثر الذى بلغ إليه لنكولن أمام جمهور المستمعين في نيويورك »

عاد لنكولن فأوضح خطة الحزب الجمهورى بما لا يدع مجالا من بعد لدسائس خصومه ، ثم استنكر ما فعله جون برون ومما ذكره فى ذلك قوله : « لا يمكننا أن نعارض فى الحكم على جون برون جزاء خيانته ولاية من ولايات الاتحاد ، لا يمكننا أن نعارض فى ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ نظام العبيد فان ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة »

وأقبل عليه الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم يهنئونه بما ظفر به من توفيق فى هذا الحفل المشهود ، ويعلنون إليه حبهم وولاءهم وإعجابهم بمبادئه . ولقد طار صيته بهذا الخطاب على نحو لم ير مثله من قبل ، وأخذ الناس يحسون أنه الرجل الذى تجتمع عليه القلوب والأهواء . ولقد رأى الصحف وهو فى طريقه إلى سبرنجفيلد تتحدث عن ترشيحه للرياسة فى الانتخاب الذى يحل ميعاده فى نهاية هذا العام ...

« يتبع »

الخفيف